الفصل الثالث

قضية الدستور

مقدمة

لقد شغلت قضية الدستور كتَّاب الوفد ومن بينهم المؤلف الذى نقرأ مقالاته أمين بك عز العرب، فأفرد لها العديد من المقالات فى صحيفة «البلاغ»، والحديث عن الدستور يقتضى أيضًا الحديث عن مجلس الشيوخ (مجلس النواب حاليًا).. ومن العجب أنه رغم مرور عقود زمنية طويلة على كتابة هذه المقالات، إلا أنها مازالت تشغل بال المصريين، وتدور حولها مقالات الأحفاد لهؤلاء الكتاب الكبار فى زمانهم. ويشرح أمين عز العرب كيف يكون رئيس مجلس الشيوخ عادلًا، وكيف أن المساس بهذا المجلس هو مساس بالدستور، وأنه لا يمكن تنقيح الدستور فى غيبة البرلمان. ويضرب مثالًا مهمًا فيما يتعلق بقانون الانتخابات.

ويتناول المؤلف ما أثير من شائعات حول مجلس الدولة وما أثير بشأن وجود اتجاه لتعديل القانون الخاص به، وكيف كانت أحزاب المعارضة للوفد تثير الشكوك فى هذا الشأن ومن أبلغ ما كتب أمين عز العرب مقاله المعنون بـ «لا ترسلوا فى جو الانتخاب سحبًا» والمقال الآخر الخاص بـ «ليس للحكومة هيمنة على البرلمان».

رياسة الشيوخ

إنَّه لمؤسف حقًا أن يصبح الحال فى هذا البلد كنا نرى، فلا يبقى هناك احترام لكبيرٍ ولا توقيرٍ لعظيم، فقد غدا التعريض بكرام القوم سلعة دائمة العرض فى أسواقنا السياسية. حالٌ لا تجدها فى أى بلدٍ من بلاد العالم، ففى غير مصر يعتز الناس بكبارهم وعظماء رجالهم. ويحوطونهم بسياجٍ من التوقير والاحترام لأنهم يعتبرونهم من الثروة الوطنية والكنوز القومية التى تحرص تلك الشعوب عليها الحرص كله. ولكننا هنا فى مصر – مع الأسف – نسرف فى كل شىء.. نسرف فى أموالنا، فلا ندخر منها لوقت الضيق والحاجة.. ونسرف فى أقوالنا فلا ضابط لما نقول.. ونسرف فى سمعة رجالنا فلا ندع كبيرًا إلا لمزناه ولا عظيمًا إلا غمزناه. وهكذا ترى من بيننا المسلطين منا على كياننا يعملون على هدمه بالتشهير فى كل صباح ومساء فإن أعجزتهم وسائله فبالغمز واللمز يحاولون تقويض هذا الكيان.

أقول ذلك لمناسبة ما درجت على نشره المجلات المعروفة منذ حل مجلس النواب، فهى لا تفتأ تتحدث عن رياسة مجلس الشيوخ، فيومًا تشير إلى أنَّ مدة سعادة رئيس المجلس الحالى تنتهى فى أواسط شهر يونيه المقبل، ثم تعود فتعيد نشر الخبر مرة ومرة ويومًا تتحدث عن الرياسة ووجوب توليتها لمستقلٍ وهكذا تدور وتدور حول هدف مفهوم، وغرض واضح معلوم. لست أدرى أهو تنبيه منها وتحريض أم هو شىء آخر.

وأيًا كان المقصود من ترديد هذه الأناشيد.. فإن ما أرمى إليه هو شىء واحد. أريد أن أبصر الناس بحالنا التى وصلنا إليها لعلَّ الناس يومًا يتضافرون على مكافحة هذا البلاء ويعملون على تخليص البلاد من هذا الوباء، وباء التعريض

بكبار رجالنا من قريبٍ أو من بعيدٍ.

وأود أن أؤكد لحضرات القراء أنَّ سعادة العرابى باشا لو علم أننى أكتب هذه الكلمة لمنعنى من نشرها، وأنا لهذا لم أخبره مع أننى دائمًا ألقاه وكنت معه أمس الأول ولست أحب أن أرجع إليه فى شأنٍ يتصل به، فكبرياؤه ستدعوه حتمًا إلى الإلحاح علىّ فى ألا أكتب وأنا لابد لى من أن أكتب لأبصر الناس بحالنا التى وصلنا إليها ولأزيدهم بيانًا بعيوبنا الاجتماعية.

وسعادة العرابى باشا رئيس مجلس الشيوخ عضو بالوفد المصرى من قديم، لكنه بقى الرئيس المستقل للمجلس بكل ما فى الكلمة من معنى، فهو قد عرف كيف يضع الحد الفاصل بين لونه الحزبى وأعباء منصبه كرئيس لأعلى مجلس تشريعى، ولم يكن سعادته جديدًا على المجلس، فقد تولى رياسته مرتين سلخ فيهما أكثر من خمس سنوات لم يعرف عنه يومًا أنه انحرف عن طريق الحق أو حاد عن نصوص الدستور وأحكام اللائحة، ولا عرف عنه أنه ضيَّق على المعارضة ولا أنه ناور مع حكومة من الحكومات ولو كانت حكومة الأغلبية التى ينتمى إليها. وإن كان قد عرف عنه شىء فهو التشدد فى التمسك بالحق الذى يعتقده و«الحنبلة» المتناهية فى كل شأن جل أو هان.

فهو فوق المنصة الرئيس المستقل الاستقلال الذى لا شبهة فيه، هو إلى جانب هذا، المحافظ على سمعة المجلس الحريص على كرامته وكرامة أعضائه على اختلاف ألوانهم الحزبية.

وهو الرئيس الذى لا يتحدث عن شئون السياسة ولا يبدى رأيًا فيها إيمانًا منه بأنَّ أمورها معرضة للبحث أمام المجلس، فلا محل لأن يتحدث عنها الرئيس.

وهو إلى جانب ذلك رجل تشريع وقانون ومؤلف دقيق البحث كثير التنقيب.

ففيم إذن هذه الصغائر، وهى لا تليق ولا تجوز. وفيم هذا التعريض بكبار رجالنا وهم لنا ثروة وذخر.

ألا يرى الناس أنَّ ترديد هذه النغمات فى المجالات المعروفة ينطوى على كل معانى التعريض والتحريض، وأنَّ الدافع إليه شىء واحد.. هو أنَّ سعادة العرابى باشا رئيس مجلس الشيوخ وفدى.. وأنَّه ليس من سبيل إلى التشهير به فلا طريق لاتهامه باستغلال النفوذ ولا بغيرها ولا وسيلة لشىء من هذا.. ولكن لابد من التعريض.. فلتكن وسيلة ذلك فى الكلام عن وجوب استقلال الرياسة وألا يتولاها حزبى. وأنا أتحدى من يقبل التحدى أن يجد شيئًا ولو تافهًا يدل على أنَّ سعادة الرئيس الحالى كان غير مستقل فى أى من تصرفاته من قريبٍ أو من بعيدٍ مدى سنوات رياسته جميعها.

وهذا الذى يكتب من آن إلى آخر فيه الدليل كل الدليل على أنَّ محاربة الوفد خطة موضوعة ومرسومة لتلك المجلات، فهى إن لم نجد فى باب التشهير مجالًا دخلت من باب التعريض لتمس كبارنا وتحرض ضدهم. وتلك المجلات لو أنها علمت أنَّ رئيسنا الجليل القدر لا يأبه لشىء مما تهدف، وأنه يحتقر أمثال هذه الأناشيد، لو وفرت على نفسها الكتابة وعلى قرائها تضييع وقتهم فى مثل هذه السخافات.

فهل يرى الناس أنفسهم بعد هذا فى حاجة إلى الجزم بأنَّ وظيفة هذه المجلات هى محاربة الوفد والوفديين وأنَّ غرضها هو هدم هذه الهيئة التى وقفت بالمرصاد للمستعمرين.

ولكن هيهات فإنَّ للمصريين عقولًا وعندهم إلهام.